مكتبة المقتطف

مقدمة في الاجتماع

كتاب للأستاذ عبد الفتاح ابراهيم — بغداد

حيّا الله العراق وأهل العراق ، فإنهم قد أعطوا الدنيا كلها الدليل الواضح على عراقتهم في المجد ، وقدم عهدهم بالمعرفة ، وطول ممارستهم لشؤون الفكر والبحث ، على الرغم من أحداث الليالي : فلقد كان لبغداد في العصور الخوالي شأن وأي شأن في العلوم والآداب والفنون ، إذ كانت كعبة كل أديب ، ومطمح نظر كل مفكر ، عنها تصدر الروائع ، وفيها تظهر الطرف ، وفي قصورها ونواديها ومجتمعاتها تشهد أرق صورة لنهضة الذهن ويقظة الروح ، ثم شاء ربك لحكمة يعلمها أن تصيب العراق نوازل الدهر وكوارث الحدثان ، فاغتصبها الدخيل ، وعدا عليها المستعمر ، وقضى على نواحي العظمة ومظاهر المجد فيها قوم بغوا في الأرض بغير الحق ، ومضى على ذلك دهر طويل ، وشاء ربك أن يعود السيف إلى قرابه ، وأن يرجع الحق الى أهله ، وأن ينال القوس باريها ، فتنفست العراق الصعداء منذ سنوات معدودات ، وما كان أشد دهشة الناس حينما رأوا العراق اليوم في مجده ونهضته وعظمته ، هو عراق القرون الماضية ، حيث كان مجلى النباهة ، ومستراد الوثبات والطفرات ؟ فكأن دهر الاحتلال والاستعمار لم يكن إلا سنة من النوم استجم بها العراق قوته ، وجمع فيها شتاته ، وجدّد نشاطه ، ثم هب من نومه مذعوراً وقد رأى الأمم تسبقه بخطوات ، فهرول في سيره ليدركها ، وطار في سعيه ليسبقها ، وأبى أن يستكين أو يصبح في الطليعة !...

أجرى على قلمي هذه العبارة الصادقة ما رأيته من مظاهر النهضة والتقدم في العراق

الشقيق الحبيب ، وعلى الأخص تلك النهضة الأدبية التي أنتظر أن تؤتي أطيب الثمار في الغد القريب ، فلقد غمرتنا العراق بمجلاتها الناشئة والناهضة ، وكتبها العلمية والأدبية القيمة ، التي إن دلت على شيء فلا تدل إلاّ على أن العربية بمصر والعراق وسوريا وبقية بلاد العرب حية لا تموت بإذن الله تعالى !

هذا كتاب جديد قيم ، في موضوع لم يصدر عنه بالعربية إلاّ كتاب أو كتابان ، فهو جديد على أذهاننا ، طريف في بلادنا ولغتنا ، فهو بلا شك صعب التناول شديد المراس علينا ، فاذا ما رأينا أديباً نابهاً مثا تناول القول عنه فوفق في أكثر مراحله ، وأجاد في أغلب مواضعه ، كان واجباً علينا أن نقدره حق قدره ، وأن نرفع من شأنه بين النابهين من الأدباء !! . .

اسم الكتاب « مقدمة في الاجتماع » وبحثه كما هو ظاهر « علم الاجتماع » ومؤلفه الأديب الكبير الأستاذ عبد الفتاح ابراهيم ، من خيرة المثقفين المفكرين في العراق ، والذي درس حيناً من الزمن في أمريكا ، بعد أن رغب التخصص في التاريخ والاجتماع ، وقد سمعت أنه أصيب أثناء دراسته بأمريكا بمرض أجبره على الانقطاع عن الدراسة ، قبل حصوله على اجازة « الدكتوراه » بعام واحد ، فاضطر الى العودة إلى بلده العراق ، ولم يهيء الله له أن يعود مرة أخرى ، فاشتغل بالبحث في شؤون التاريخ والاجتماع ، حتى صار في ذلك أقدر من حملة الاجازات والشهادات العليا . . .

وكتابه هذا يقع في ٢٢٣ صفحة من الحجم المتوسط ، ويشتمل على تسعة فصول ، استعرض فيها النزعتين « الروحية والمادية » في الحياة ، وأثرهما في الاجتماع ، ثم تناول « السياسة » خلال معناها ، وبين صلتها بالمجتمع ، وأتى على نبذة في مبدأ علم الاجتماع ومذاهب الفلاسفة اليونانيين وغيرهم فيه ، ثم انتقل الى تعريف المجتمع ومنشئه ، وأتبع ذلك بذكر مقومات المجتمع وهي : رابطة الجنس ، والبيئة ، والاقتصاد . . ثم تحدث عن « المثالية والمادية » حديثاً استغرق ما يقرب من أربعين صفحة ، ولكنه على الرغم من ذلك التناول جاء مبهماً موجزاً ، خصوصاً فيما أورده من أمثلة ، ولا يغني بتفسير « المثالية والمادية » إلاّ كتاب في خمسمائة صفحة كاملة على الأقل ، ثم تحدث المؤلف عن تطور المجتمع ووجهته

ودلائله ، وذكر بترسيخ مقومات هذا التطور من الترمية وملاءمة البيئة وتوزيع العمل ...

وأول ما ألاحظه على المؤلف ميله الى طريقة النقل والاستشهاد والتقرير ، لا إلى الانشاء والابداع ، فكثيراً ما تقرأ في تضاعيف الكتاب هذه الجمل : « ذهب فلان الى كذا » و « مذهب فلان كذا » و « في الكتاب الفلاني كذا » ! .. أفما كان يجدر بالمؤلف وقد تخصص في الاجتماع وطال عهده ببحوثه وفصوله أن يقدم لنا نتيجة بحوثه الفردية وآرائه الشخصية ؟ ... ولكن قد نجد للمؤلف عذراً عن ذلك في تسميته الكتاب « مقدمة » وننتظر منه أن يكتب بعد ذلك في الصميم فينشىء ويبدع ! ...

وفي صفحة ٤٧ يستشهد المؤلف على رجوع الانسان إلى أصل واحد بقدرة أزواجه على التزاوج والتناسل ، بخلاف بقية الحيوانات الأخرى ، فإن جنسين مختلفين منها لا يتناسلان وإن تناسلا فإن ذريتهما تفقد قابلية التناسل حتماً ، كما هو الحال في الخيل والحمير عند ما تتناسل فتلد البغال العقم » . والتعليل بهذه العلة غير مقبول ، فقد ولدت إناث البغال في حوادث محدودة ، فبطل قوله « حتماً » . فإن قيل إن ذلك من باب الشذوذ ، والشذوذ غير معتبر ، قلنا : ولا يصح لنا أن نعتمد قاعدة علمية تطرد ارتكاناً على مثل هذه الحجة ، فالتناسل من صنعة الطبيعة ، والطبيعة لا نستطيع ضبط ناموسها ، فقد تتناسل العقم غداً ، كما قد تعقم المتناسلة ، وذلك من أمور الغيب . ولعل مما يؤيد رأيي هذا عبارة المؤلف نفسه في صفحة ١١١ عن عدم اطراد صحة الاختبارات والمشاهدات ، وهذا نصها : « الاختبارات لا تدل على أكثر من نتائجها ، فتجمد الماء في درجة الصفر في حالات معينة لا يدل على أنه يتجمد دائماً في هذه الدرجة ، فربما تكون درجة الحرارة انخفضت ملايين من المرات فيما مضى فلم يتجمد ، وقد تنخفض في المستقبل فلا تتجمد أيضاً » ! .. وقياس التناسل بين نوعي الجنس البشري الإنساني على التناسل بين جنسين مختلفين من الحيوان كالخيل والحمير قياس غير صحيح وغير مستقيم ، في الانسان كان النوعان داخلين تحت جنس ، أما في الحيوان فهما جنسان كل منهما مستقل بخصائصه ومميزاته ، وإن جمعتهما رابطة الحيوانية بعد ذلك ! ..

وفي صفحة ٤٨ يقول المؤلف : « ... وشفاهاً غليضة » وأظن الصواب « غليظة »

بالظاء لا بالضاد ، فأنا لم أسمع كلمة « خليضة » هذه إلاّ في العامة !

وفي صفحة ٧٠ يقول المؤلف عن وفرة المحاصيلات وعدم احتياجها إلى عناء : « فالأرز يكفي أن تبذر بذوره فيجنى محصوله » والواقع يناقض هذا القول ، فزراعة الأرز تحتاج إلى مجهود كبير حتى تنضج ثمرتها وتؤتي أكلها ، والفلاحون في مصر مثلاً — وهي بلد مشهورة بزراعة الأرز ، وفيها النيل المبارك — قاسوا ولا يزالون يقاسون الأمرّين في زراعة الأرز ! . . وجولة قصيرة في أرجاء الريف أثناء الصيف يعطيك أوضح دليل على ما نقول !

وفي صفحة ٧٢ يقول المؤلف عن استعباد الملوك للأفراد في العصور القديمة : « فالفراعنة — مثلاً — لم يبالوا بأن يستهلكوا جهود ألفي رجل مدة ثلاث سنوات لنقل كل حجر من أحجار الاهرامات من محاجرها إلى أماكن الانشاء ، بحيث استغرق بناء الهرم الأكبر جهود ثلاثمائة وستين ألف عامل مدة عشرين سنة ، وكذلك لم يعبأوا بإفناء نيف ومائة وعشرين ألف عامل في حفر قناة البحر الأحمر . . . » . وهذا القول مبالغ فيه ، ويخطىء من يبالغ في وصف قسوة الفراعين على رعاياهم ، ولا يعقل أن نقل الحجر الواحد في الهرم كان يستغرق جهود ألفي رجل مدة ثلاث سنوات ، مع أن أكبر حجر في الهرم لا يزيد عن بضعة أطنان ، والمسافة بين المحجر وبين محل البناء ليست طويلة طولاً فاحشاً ، وكذلك لم يستخدم في بناء الهرم ٣٦٠،٠٠٠ عامل كما ذكر المؤلف ، بل مائة ألف فقط ، كانوا يشتغلون في العام ثلاثة شهور زمن الفيضان ، ثم يستبدل بهم غيرهم ، وهكذا . . . وقناة البحر الأحمر لم يهلك في انشائها ربع هذا العدد المذكور ، ومن يتصوّر أن قناة متوسطة الطول والعرض يفنى في إنشائها مائة وعشرون الف عامل ! . أي يموتون ويهلكون ! . رفقاً بعقولنا ، ورفقاً بالتاريخ يا أستاذ عبد الفتاح !

لا تظلموا الموتى ، وإن طال المدى إني أخاف عليكم أن تلتقوا !

ويتحدث المؤلف في ص ٧٢ أيضاً عن أهل البلدان الحارة فيقول إنهم « . . . يتحدون نسلهم خوف الجوع والعري » . ونحن لم نسمع قبل هذا العصر أن قوماً حاولوا تحديد النسل أو ضبطه ، وإعاقة النسل في البلاد الباردة لأسباب طبيعية ، فالجو البارد والغريزة الجنسية الباردة الراكدة بسبب هذه البرودة وذلك القوت الذي يعد عاملاً أساسيًّا في تكوين المادة التناسلية

وتوفيرها ، هذا وغيرهما من انتشار الشذوذ في النسل بتلك البلاد ، على عكس ذلك في البلاد الحارة !

وفي ص ١٠٩ يقول : « ومسخرة لأجل محافظة مصالح المتقمين به » والصواب في أعلم « حفظ » أو « المحافظة على . . . » . وفي نهاية ص ١١٣ وردت كلمة « بيضوي » نسبة إلى البيضة ، والمشهور « بيضاوي » وإن يكن القياس « بيضي » ! . وفي ص ١٩٣ يقول عن وطن الانسان : « الذي نبتت تربته (رمم) أسلافه » ولو عبر بـ « جثث » أو « رفات » بدل « رمم » هذه التي يشم منها الرائحة الخبيثة لكان أجمل وأحسن .

وقد أعجبني كل الاعجاب عبارة المؤلف في ص ١٧٨ عن سمو الأديان السماوية ، وسوء فهم الناس لها ، وتحويرهم الخاطئ لمبادئها ، فاستمع اليها تحس بما أحسست به ، قال :

« على أن الانسان لم يوفق الى ما كانت تريده له هذه الأديان العالمية ، فقد عاقه الجهل الشامل وقصر العقل في ذلك الزمان عن إدراك مراميها السامية ، واضطربت مساعيه في هذا السبيل ، مما اضطره الى اتخاذه من وسائل فرضها عليه الواقع ، فلم يمض على ظهور هذه الأديان غير وقت قصير حتى التوت كثير من مبادئها لما أساء الناس فهمها ، واستحالت الى أغلال عاقت ارتقاء العقل ، ويسرت لذوي الأطماع أن يجعلوا منها ستاراً لمطامعهم في المال والسلطان ، وهكذا انقلب الجهاد في سبيل الاسلام مثلاً الى نزاع على سلطة الحكم التي تقمصتها الخلافة ، وآل نشر الدين الى بسط السلطان ، ومبدأ الاخاء الانساني الى تسخير الشعوب بإثارة العداوة بينها لخدمة مطامع المتنازعين على السلطة ، وقامت الكنيسة في أوربا ففعلت في المسيحية مثل ما فعل النزاع على الخلافة في الاسلام ، واتخذت من مبادىء الدين المسيحي السامية وسائل لجمع المال ، وخدع الناس بالبهرجة الزائفة ، واشغالهم بالطقوس الجوفاء ، واستهلاك قوى العقل في مسائل لا طائل تحتها ، واستخدام سلطان الدين لتدعيم الاقطاع ! » .

هذا جميل كما ترى ، ولكن ما بال المؤلف يذهب عقيب ذلك مباشرة فيناقض نفسه ويدعي أن الأديان العالمية — يعني السماوية كما يظهر — « وإن سوت بعض التناقض في كثير من العلاقات الاجتماعية . . . ولكنها قوت في مؤسساتها متناقضات أخرى بالتفريق بين الناس على أساس الاعتقاد . . . » الخ .

يا أخانا الأستاذ عبد الفتاح ! . . أما الأديان الوضعية فقد اتفق العقلاء على أنها باطلة . وأما الأديان التي ثبتت سماويتها فكلها من نبع واحد ومصدر واحد ، قال القرآن الكريم : « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرّق بين أحدٍ منهم ، ونحن له مسلمون » . وقال القرآن الكريم أيضاً :

« آمن الرسولُ بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كلٌّ آمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، لا نُفرّق بين أحدٍ من رُسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير » .

وقال نبي الاسلام عليه السلام : « الانبياء أبناء علات ، الأب واحد ، والأمهات مختلفات » .

فأنت ترى أن الأديان متحدة في الأصل ، وإنما جاء الاختلاف والتفريق من التحريف والابتداع الذي قام به الكهان والجهال في كل دين سماوي ، وما الموسوية والمسيحية والمحمدية إلا مترادفات لمعنىً واحد ، هو الاقرار بوحدانية الخالق ، والإخبات لتعاليمه وشرعه ، ولكن الناس اختلفوا ، « وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينات » ! .

ومن ذلك يتبين أن الأديان السماوية العالمية لم تحل العداوة بين المختلفين في العقيدة ، بل دعت الى الوحدة والاجتماع ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدة !! .

وفي ٢٦٢ يقول المؤلف : « نستطيع أن نقدر الخدمة العظيمة التي قدمتها الحركة الكمالية الى اللغة التركية باقتباسها حروف « ألفباء » اللاتينية ، باعتبار أنها تمتاز عن « ألفباء » العربية في أنها بلغت في الاحتواء على الحركات آخر مراحل التطور الحقق » .

وأنا مع إعجابي بنهضة الكماليين في شؤون كثيرة ، لا أساير المؤلف في الاعجاب بهجرهم الحرف العربي وإيثارهم اللاتيني ، فما يدل ذلك إلا على انعدام القومية ، وعدم الحفاظ على لغة القرآن ، تلك اللغة التي أوصلتهم يوماً ما إلى مجد لم تره أمة في العالم ، من الناحيتين المادية والروحية ! ولقد كان في مكنة الكماليين أن يصلحوا من شأن « ألفباء » العربية ، بأن يخترعوا فيها حروفاً للحركات ، فيحفظوا بذلك لغة دينهم وقوميتهم : « وقد حاول هذا

الاصلاح بعض المفكرين العرب على صفحات بعض المجلات والكتب ولعلهم يوفقون ! !

كذلك ألاحظ أن المؤلف أكثر من ذكر الكتب والمراجع وأسماء رجال الاجتماع بالحروف اللاتينية فقط في صلب الكتاب ، وعندي أن هذا يشوّش على القراء قراءتهم ، وخصوصاً الذين لا يعرفون لغة أجنبية وهم الكثرة الغالبة في بلادنا . ولذلك كان من واجبه أن يكتب هذه الاسماء بالحروف العربية في صلب الكتاب ، وإن أراد الدقة في العمل فلا مانع من ذكرها بالحروف اللاتينية في الهوامش .

كذلك أعاتبه على إهماله لرجال الاجتماع العرب والمسلمين في العصور الماضية ، فما لا شك فيه أن لهم باعاً طويلاً في هذا العلم ، وإن يكن بأسلوب وتعابير ومظاهر غير المعروفة لنا اليوم ، وما أظن أنه استشهد بعربي في كتابه إلاّ بابن خلدون مرة أو مرتين ! ...

إن للغرب نهضة حديثة باهرة ، ولكن يجب أن نذكر أنها عنا أخذت ، ولعلها إلينا تعود يوماً من الأيام ! ..

لا يسعني في النهاية إلاّ تهنئة الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم على هذا الأثر العلمي القيم ، وأتوقع بعد أن قدم مقدمته أن يدخل في الصميم ، فيفصل لنا قضايا الاجتماع تفصيلاً لأنه من العلوم الهامة التي يترتب عليها كثير من الآثار الخطيرة في تقدم الأمم وعلوّ شأنها ، وما أحوجنا نحن الشرقيين إليه في هذا العصر ، والله ولي التوفيق .

أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

١ — أثر العرب في الحضارة الأوربية

للاستاذ عباس محمود العقاد

توافر لهذا الكتاب عنصران فوق لهم خطرهما ، وأهميتهما في مجال الدراسة والتأريخ ، عنصر الموضوع الذي يدور حوله البحث . فهو من الموضوعات التي غدت مثاراً لاضطرابات الأفكار بين متعصب لها ، ومتجنٍّ عليها ، ولم يظفر هذا الموضوع بالدراسة العلمية التحليلية — فيما أعلم — قبل هذا الكتاب ، فقد استطاع — العقاد — أن يبلغ المحز من تلك المشاكل المعقدة ، والنفاذ الى اللباب في كل ما يعرض له ، وبيان الأسباب ، والكشف عن

العوامل الطبيعية التي خلقت هذه الظواهر ، لاننا بالبزاعة العلمية ، التي لا تورّط ، ولا تغالي ، بل تعرض على المشرحة كل ما نريد أن ندرسه ، ونضعه تحت المجهر ، ثم نراقب ، ونستقرىء ، ونشاهد ، ونسجل ما نصل اليه بعد التجربة ، والتحليل ، واننا كذ ، وهو يقرر أنه ليس من همه في هذا الكتاب أن ينفي مزايا الشعوب ، والسلالات ، فان هذه المزايا حقيقة لا شك فيها ، ولا سبيل الى نكرانها ، ولكننا إذا همنا برد هذه المزايا إلى عدة عوامل طبيعية ، وأسباب تاريخية ، تسري على كل قوم إذا تعرضوا لها ، ولا ينفرد بها الساميون ، أو غير الساميين ، وبهذا الميزان الصحيح تنعقد الموازنة بين الحضارة العربية ، وسائر الحضارات فلا تميل في الميزان . هذا هو المنهج الذي ينهجه العقاد في دراسة أمثال هذه المباحث فلا يستعين بالثروة الإنشائية حيث تكون الكلمة للمنطق الحكيم ، والسند التاريخي الركين ، وقد أخذ يدرس كل هذه المظاهر التي أخذتها أوروبا عن العرب ثم عقب بما أخذه العرب عن أوروبا فتكلم عن العرب ومن هم ؟ والعقائد السماوية ، وآداب الحياة والسلوك ، والتدوين ، ومناعات السلم والحرب ، والأصل والنقل والعلب ، والعلوم والجغرافيا والفلك والرياضة ، والأدب والفنون الجميلة والفلسفة والدين . ثم يتناول بعض الالوان التي استعارتها العرب عن أوروبا . فتكلم عن — سداد الديون ، والاجتماع ، والسياسة ، والحكومة البرلمانية الوطنية ، والأخلاق ، والعادات ، والادب ، والفن ، والصحافة ، فجاء هذا الكتاب أجل دراسة عالجت هذا الموضوع وردّت الى كثير من قلوب شبابنا المثقف إيمانهم ، وإجلالهم ، لحضارتهم على أساس علمي ، لا من طريق إثارة الحماس ، وإيقاد جذوة التعصب . والعنصر الآخر هو تلك المهارة ، والدقة ، والحذق في التحليل ، واستخلاص النتائج من المقدمات حتى يستطيع الكاتب الذي يتصدى لهذه الدراسات أن يقدم ما ينفع ، ويعيش ، وهذا البحث يعد المثال ، والنموذج في هذا النوع من الدراسة التي يجب أن يكون هدف من يروم الكتابة ، ويدرس التاريخ .

٢ — كتب وشخصيات

الاستاذ سيد قطب

لكل كاتب جانبه الحي الخصب الذي تتجلى فيه خصائص ذهنه ، وطبيعة ملكاته ، فهو مبدع ، متفوق ، دقيق ، ما انطلق في ميدانه ، واستجاب لإلهامه ، والأستاذ — سيد قطب —

يكاد يتفرد في مجال النقد الأدبي بنوع من الأسلوب الطبع ، والتناول المحكم ، خليقان بالثناء والتشجيع ، يعاونه حس مشبوب ، وذوق معقول ، ويعبر بهذا الضرب من النقد . ولقد استطاع أن يتسنم هذه الذروة المرموقة ، واثباً . وكتابه هذا تظهر فيه كل هذه الخصائص التي يمتاز بها هذا الذهن المتوقد ، المأمول في عالم النقد والأدب ، وهو كتاب له أثره القوي في تمثل هذا اللون من النقد ، ورياضة الأذواق الناشئة على تذوق الجمال الفني ، وتبصيره بمواطن المآخذ ، ومحاولة إعطائه الصورة الصادقة التي يجب أن ترتسم في نفوس الشباب لماهية الأدب ، ورسالة الأديب ، وله أيضاً جانبه الخاص من حيث هو دراسة أدبية للأدب في هذا العصر ، فهو يتناول الأدباء المعاصرين بالدراسة ، وتصوير مذاهبهم وتوضيح مناهجهم في الكتابة والتفكير ، عن طريق كتبهم فهو يأخذ بعض الآثار التي تصدر عن هذا الأديب ، أو ذاك ويجعله محور كلامه ، ويتخذه وسيلة لافاضة الكلام عن أسلوبه ، ونهجه ثم يحاول أن يتخذ من كل هذا مذهباً عاماً للكاتب ، أو الشاعر ، أو القصاص ، فهو في هذا يدرس شخصيات الأدباء عن طريق كتبهم ، فليس هو ترجم لهؤلاء الأدباء ، ولا دراسة تحليلية شاملة ، عميقة عنهم ، ولكنك تستطيع أن تقول إنه دراسات لبعض جوانب من هذه الشخصيات ، يثيرها ، ويدعو اليها ، هذا الأثر ، أو ذاك الذي صدر عن هذا الأديب أو ذاك والذي كان داعية البحث ، والهدف الأصيل للناقد ، ولكن الكاتب لم يترك موضوع الكتاب يفرض عليه القيد ، ويحتجزه خلف أسواره ، بل كان ينطلق حراً في كثير من الأحيان حيث يلم الملمات واسعة في نواحي الشخصية العامة حتى يضع بين يديك صورة متقنة لها . فجاءت دراسات ممتعة خصبة في هذا الباب الذي تشتد حاجتنا اليه ، لما فيه من صقل للأذواق ، وإرهاف للاحاسيس ، ومعاونة في النهوض برسالة الفن والأدب . ففيه آراء قيمة عن الفن ، والقصة ، والكتاب ، والشعراء بين شبوخ ، وشبان ، وهذه الدراسات تبرز السمات الفنية . والخصائص الأدبية ، وطرائق التفكير ، والتعبير ، لأمثال الأساتذة القادة : طه حسين ، والعقاد ، وهيكل ، والمازني ، والحكيم ، وأدهم وغيرهم ممن تلمع أسماؤهم في آفاق النهضة الأدبية المعاصرة .

محمد عبد الحليم أبو زيد

لتخليد ذكرى المرحوم نعمة يافث

تلقينا من الأستاذ أنطونيوس يافث من كبار المهاجرين اللبنانيين الأدباء في سان باولو في برازيل مجلدين كبيري الحجم وقفهما على ذكرى المرحوم نعمة يافث نسيبه . وقد توفي سنة ١٩٢٤ .

والذين تولوا التدريس في الجامعة الأميركية في بيروت في أواخر القرن الماضي أو كانوا طلاباً فيها إذ ذاك يعرفون نعمة يافث تلميذاً نجيباً من تلامذتهم، أو رفيقاً من رفقائهم على مقاعد الدرس ، أو صديقاً حميماً من أصدقائهم بعد تخرجه ، ويعترفون بما أوتيه من مواهب عقلية وخلقية ممتازة ويذكرون له كثيراً من المفاخر والمآثر التي رفعت قدره في عيونهم، وأدامت صداقتهم له وعرفانهم لفضله حيًّا وميتاً .

تعلَّم المرحوم نعمة يافث في مدرسة المرسلين الانجليزية في بلدته « الشوير » من أعمال لبنان . وبعد ما أتمَّ دروسه فيها التحق بالكلية الأميركية، ونال منها البكالوريوس في العلوم سنة ١٨٨٢ وفي أثناء الدراسة كان معروفاً بالنجابة والعلمية والاجتهاد والاكباب على تحصيل العلوم ، ولاسيما علوم الرياضة والفلك والاقتصاد، فتبرز فيها براعة أهَّلته لمعاجلة كثير من الأساتذة والعلماء على صفحات المقتطف .

وبعد ما تخرَّج في الكلية دعي لادارة مدرسة الطائفة الارثوذكسية في بيروت فأحسن ادارتها، وأصلح نظمها وترك لها فيها مآثر مشكورة وكان المجمع العلمي الشرقي قد أسس قبل ذلك فانضمَّ الى عضويته ، وكان فيها زميلاً لكثير من أقطاب العلم في ذلك العصر ابراهيم اليازجي، وابرهيم الحوراني، وبطرس البستاني، وسليم البستاني، والدكتور يعقوب صرُّوف، والدكتور فارس نمر ، وغيرهم ، فانتخبوه كاتم سر المجمع تقديراً لمؤهلاته وذكائه ونشاطه .

ولكن لبنان ضاق بهمة نعمة يافث كما ضاق بكثيرين قبله ، فنزح الى برازيل في سنة ١٨٩٣ .

وكان قد سبقه إليها اخوته الثلاثة وأقاموا في سان باولو يشتغلون بالتجارة ، فانضمَّ اليهم وأسس معهم شركة تجارية ، تولى ادارتها ، فكان حليفها النجاح ، وشجعه ذلك على تفضيل الاشتغال بالصناعة واختار صناعة غزل القطن ونسجه ، لأنه توقع بعد نظره ان مصنوعات القطن ستكون من أكثر المصنوعات رواجاً . وتمَّ له ما أراد ، وساعدته مؤهلاته العلمية ، وذكاؤه الطبيعي، وخلقه المتين على احراز أقصى ما طمح اليه من نجاح وبلغ مصنع « يافث »

في سان باولو من الشهرة وذيوع الاسم والازدهار فوق ما كان يحلم به ، واتسع المصنع حتى صار يشتمل على ٤٥ ألف مغزل، و١٤٠٠ نول، وأربع مطابع لطبع القماش وكان يعمل فيه ٢٥٠٠ عامل ، واقتنى هو واخوته من وراء ذلك ثروة ومجداً .

وبعد ما قضى في المهجر ٢٨ عاماً حنَّ الى وطنه ، فزار الشرق في سنة ١٩٢١ وعرج على مصر، والتقى بأستاذه الدكتور يعقوب صرّوف وكان المقتطف قد نشر له كثيراً من البحوث الطلية والمناظرات العلمية في الرياضة والطبيعة واللغة كما تقدم .

وحالما وطئت قدماه مصر انصرف الى الاهتمام بشؤونها الاقتصادية وأخذ يبحث في كيف يجلب اليها البن البرازيلي ويبيعه فيها رخيصاً . وفي ما يتعلق بالقطن المصري كان له رأي خاص هو أن تحتكر حكومة مصر هذا القطن كما احتكرت حكومة البرازيل محصول البن اعتقاداً منه بأن ذلك يفيد الحكومة والشعب .

ولم تقتصر براعة نعمة يافث على حسن ادارة الأعمال الادارية والصناعية ، بل كانت له نظرات اجتماعية تدل على صحة عقله ، واستنارة بصيرته، وبعد نظره . كما كانت له نظرات فلسفية في الأديان فدعا الى التمسك بروح هذه الأديان، وتآخي الناس، ونبذ التعصب الديني. وفوق هذا وذاك كان وطنياً صادق النزعة يحب لبلاده الاستقلال والحرية .

هذا هو الرجل العصامي الذي جمع الأستاذ انطونيوس يافث آثاره من خطب ومقالات وبحوث في هذين المجلدين باسطاً تاريخ حياته بسطاً شافياً ، فذكر نسبه ، ومولده ، وتثقيفه ورجولته ، ونبوغه في العلوم ، ونجاحه في الاقتصاد ، ووصف أدبه وتواضعه ، وكرم خلقه، واستقامته، ونزاهته ، وبره بوالديه ، ووفاءه لأصدقائه، وحسن معاشرته لزوجته ، واجادة تربيته لأولاده ، الى أن انتقل الى رحمة مولاه في سنة ١٩٢٤ فأجمعت الصحف في لبنان وسورية والمهجر على رثائه وأشادت بفضائله . أسكنه الله منازل الأبرار ، وجعل من سيرته نبراساً يستضيء به الشباب في الحياة .

قصة الالياذة

السيدة عنبرة سلام الخالدي : ٢٧٠ صفحة — المطبعة العصرية بالقدس

قبل تسع عشرة سنة كانت مدينة بيروت تفاخر وتزهو بمجلة « الكشاف » التي ضربت رقماً قياسياً عالياً بطلاوة بحوثها وروعة مواضيعها ، إذ كانت مسرحاً لأقلام أعلام بارزين في المحيط العربي كالأثري والزهاوي من بغداد ، وكردعلي والمغربي من دمشق ، والريحاني

والفاخوري من بيروت ، وعبد الله مخلص والنشاشيبي من بيت المقدس .

وفي عداد هذا الرعيل الخصيب النوج ، المعطر الغذاء كانت السيدة عنبرة سلام الخالدي قرينة الأستاذ المربي الكبير احمد سامح بك الخالدي ، تنثر قطافها الطيبة تباعاً من المجاتاء يوم كانت تطلب العلم في جامعة لندن ، فكنت مسحوراً بطلاوة موضوعاتها وروعة أسلوبها ورجوت لها من ذلك اليوم مستقبلاً أدبيًّا باهراً

«. . . وإن في نساء[1] هذه الأمة ، قوى هائلة مستترة ، بدرت لي بوادرها منذ أعوام ، وكان لي حظ مرافقتها منذ هبت ، يا لروعتها عندما توثب وتزبد ، جائشة كالإناء الغالي ، ويا لأنوثتها المستحية ، تخالف سنن الطبيعة ، وتقنع بالجمود عندما يوضع الغطاء ، وتسد المنافذ ، وتحكم الأقفال ! ! ، ولكنه جمود ينذره تدفّق واصرار في غيرزهو وادعاء ! » .

هكذا تنبأت عنبرة سلام ورفيقات لها ، ظهرن ثم اختفين وظهرن ثم ازوين ، وما هي ذي أصواتهن الحلوة تعود الى المنبر النسائي بفضل القوة العلوية الدافعة الى الخير

ودارت الأرض دورتها حول الشمس . . . وما هي إلا سنوات قلائل حتى كانت السيدة عنبرة من نصيب بيت المقدس ، فلم يقف إنتاجها — كما — عند حد . . . . ورغم مسؤولية الزواج وواجبات الأبناء ، بل استطاعت تلك السيدة النابهة أن توفق بين شؤون منزلها ورغبة قلمها ، وكان آخر ما أضفاه ذلك اليراع الخصب على خزانة الأدب العربي ترجمتها (الياذة هوميروس) عن كتاب « قصة الالياذة » بالانكليزية لالفرد تشرش أستاذ اللاتينية في جامعة لندن ، فجاءت ترجمة السيدة الخالدية تحفة رائعة تتسم بإشراق الديباجة وطلاوة الأسلوب ما يجعل الكتاب جديراً بأن يحتفظ به كل مثقف

وهذه القصة تسرد تفصيل وقائع الخصام بين زعيمين كانا حليفين في الحرب وما أنتجه خصامهما من كوارث لاصدقائهما . وقد قال أحد شعراء الرومان « ان الالياذة بتقديمها الأمثال عن عظماء وهم يعملون تعلم ماهو شريف وما هو شائن أفضل مما يعلمه كل الفلاسفة النظريين » .

ولو حظي كل قطر عربي بجماعة طيبة كالسيدة عنبرة في جهودها لانبلج ليل العرب . . وقطعوا شوطاً بعيداً في مضمار الاجتماعي ، ولكان الوعي القومي غيره في بلاد تتلمس سبيل النجاة والانطلاق من كل قيد وإسار ! .

(بيت المقدس) « البرق الملثم »

(١) من كلمة نشرتها الادبية السيدة سلمى صائغ عام ١٩٢٨

فهرس الجزء الرابع

من المجلد التاسع بعد المائة

١٦٩ هذي هي الأغلال : اسماعيل مظهر

١٧٣ أعجوبة آلة الطب : انطون ذكري

١٨٥ تحول النمو التدريجي الى انقلاب في الثورة الفرنسية : ع . ش

١٨٨ ميزان الحكمة للخازن : فؤاد جيمان

١٩٣ العقم في المرأة : الدكتور عبده رزق

١٩٧ انتظار (قصيدة) : عدنان مردم بك

٢٠٠ كيف تحفظ صحتك : الى السعادة : فهمي عطا الله

٢٠١ هل هذبتنا الحرب : الياس يعقوب

٢٠٩ ابني (قصيدة) : شاعر البراري

٢١٠ الكيمياء عند العرب : شريف الشاشيبي

٢١٥ السنة الشعرية وشهورها : رفيق التميمي

٢٢٢ عيد الميلاد : تأليف انتون تشيكوف : ترجمة سليم تاوضروس الاسيوطي

---

٢٢٨ مكتبة المقتطف * مقدمة في علم الاجتماع : احمد الشرباصي ١ — مآثر العرب في الحضارة الاوروبية ٢ — كتب وشخصيات : محمد عبد الحليم أبو زيد . لتخليد ذكرى المرحوم نعمة يافث . قصة الانسانية : البدوي الملثم

ملحق بالمقتطف

١ — ٥٦ في العلم الروحي الحديث : العجيبة الثامنة : بقلم أحمد فهمي أبو الخير